الزمن المضادّ للكتابة (*)

أحلام مستغانمي

ذات يوم يأتي من يَطلبُ منك أن تتحدّث عن تجربتك في الكتابة. وإذا بك، أنت الذي تحترف الكلمات، لا تدري كيف تُلخِّصُ عمرك على الورق، ولا تدري بالتحديد متىٰ كان مولدك.

فالكاتب يولد فجأة، ولكن غالباً في غير التّاريخ الذي يتوقّعه. هناك من يعتقد أنّه ولد كاتباً منذ الأزل.. وهناك من وُلد أمام أوّل كتاب أصدره... وآخر لم يُولَدْ إلاّ في الأربعين نصّه الأخير.. لكنْ، أن تسوّد عشرات الأوراق، لا يعني أنّك مبدع، وأن تصدر أكثر من كتاب لا يعني أنّك كاتب. «همنغواي» كان يقول: «الكاتب هو من له قرّاء»، وربّما كان يعني من له معجبون وأعداء.

فأن تكتب يعني أن تفكّر ضدّ نفسك. أن تجادل، أن تعارض، أن تجازف، أن تعي منذ البداية أن لا أدب خارج المحظور، ولا إبداع خارج الممنوع، ولا خارج الأسئلة الكبيرة التي لا جواب لها. ولو كانت الكتابة غير هذا لاكتفت البشريّة بالكتب السّماوية وانتهى الأمر. ولكن خطر الكتابة ومتعتها يكمنان في كونها إعادة نظر ومساءلة دائمة للذات؛ أي في كونها مجازفة دائمة.

وهكذا يمكنني أن أقول إنّني في البدء ولدتُ شاعرةً، في الثّامنة عشرة من عمري، في قاعة مكتظّة بالرجولة، ذات أمسية شعريّة حين وقفتُ لأقرأ شعراً عاطفيّاً على جمهور جزائري متحمّس وشرس، جاء نصفُه ليُصَفِّقَ لي.. ونصفُه الآخر ليحاكمني بتهمة أنوثتي والكتابة عن الحبّ في زمن لم ينته فيه البعض من دفن الشّهداء على صفحات الجرائد وبين دفّتي الكتب. وممّا زاد في حَماس القاعة شهرتي الإذاعية كمقدّمة لبرنامج شعري عاطفي يُذاع كلّ ليلة بعنوان «همسات». فقد كان ذلك البرنامج على بساطته انقلاباً على التّركيبة النّفسيّة الجزائرية التي لم تتعوّد سماعَ الغزل ولا قوله؛ فما بالك أن يأتي مِنْ فتاة جزائرية هي من براعم جيل الاستقلال الذي راهنتْ عليه ثورةٌ بأكملها؟

(*) شهادة ألقيت في ندوة «المرأة والإبداع» في معهد العالم العربي في باريس.

في الواقع، كنّا شعباً يعاني من عجز عاطفيّ لأسباب تاريخيّة معقّدة. ولا أدري كيف أكتشفتُ هذا رغم صغر سنّي، وجعلتُ من الحبّ والكلمة الجميلة قضيّتي الأولى، معتقدةً أنّ الإنسان الجزائري مريض وفارغ من الداخل وأنّ كلّ الأبنية والشّعارات الثّورية التي رُفعت حوله بعد الاستقلال لن تساعد في إعماره. فوحدهما: اللّغةُ والعاطفة بإمكانهما ترميمه وبناء إنسان جزائري جديد. وربّما كان أحد أسباب مشاكلنا الحالية هو إهمالنا، بَعْد الاستقلال، البنيةَ النفسيّةَ والعاطفية لهذا الإنسان وأنشغالنا بالقُرى الزّراعية والاقتصاد النّموذجي.

كتبتُ عن الحبّ في زمن لم ينتهِ فيه بعضُ الجزائريين من دفن الشّهداء على صفحات الجرائد!

يومها كان بإمكان الأصوات الرّجاليّة العدائيّة أن تُغطّي على نبرتي الشّاعريّة المرتبكة وتخنق صوتي الذي يخرج إلى العالم لأوّل مرّة. ولكنّني وجدت قوّتي في الرّجل الذي كنت أخافه وربّما أخجل منه.

وكنت قد خطّطتُ تلك الأمسية لتصادف وجودَ أبي في المستشفى حتّى أضمن عدمَ حضوره والاستماع إلى ما أكتب بعدما كنتُ قد ضمنتُ في الماضي عدم قدرته على قراءتي لجهله باللّغة العربية. في الواقع كانت قوتي وجرأتي في الكتابة تكمنان في جهل جميع أفراد أسرتي باللّغة العربية، بما في ذلك أبي الذي كان شاعراً باللّغة الفرنسيّة، ولم يسألني يوماً عمّا كنت أكتب وإنما كان يتفرّج على صوري في الجرائد بزهو أبويّ.

ولكن أبي الذي كان موجوداً للعلاج في مستشفى عسكري بلغه عن طريق الجرائد خبر تلك الأمسية. وإذا به يقرّر مغادرة المستشفى دون إذن من الطّبيب بعد أن دفع إلى ممرّضيه مبلغاً من المال مقابلَ مرافقته.

وأذكر أنّه كاد يُغمى عليَّ وأنا أرى، من منصّتي، أبي يدخل القاعة محاطاً بممرّضَيْن، فيأخذُ مكانه مقابلاً لي.

لم أكن أتوقّع يومها، وأنا أختار تلك القصائد بأستفزاز مسبق، أن يكون أبي هو الذي سيستمع لي. رحت أقرأها مكرهة لأنّه لم تكن في حوزتي غيرها. وكانت مفاجأتي الأخيرة لحظةَ أنتهاء الأمسية أنْ بدأ بعض الحضور بمهاجمتي بتهمة غياب الثّورة الجزائريّة عن أشعاري. وهنا وقف أبي ليطلب الكلمة بصفته أبي. وأذكر أنّه قال: «إنّ ابنتي ولدت أثناء الثورة ولا يمكنها أن تكتب عن شيء لم تعشه وأن تفتعل ذكريات لتصبح في نظركم شاعرة. هي ليست هنا لتكتب التّاريخ وإنّما لتكتب أحاسيسها. لن تقتلوا الشّعر أيضاً بأسم الثّورة. إذا شئتم التّحدّث عن الثّورة فسأحدّثكم عنها أنا. فأنا مجاهد، وأمّا هي فمن جيل آخر له اليومَ همومٌ أخرى».

جاء أبي من المستشفى مع ممرّضيْن ليسمع شعري!

وهكذا تحوّل الحوار أمام دهشتي إلى نقاش بين أبي والقاعة التي راح نصفها يصفّق له وهو يجيب نيابةً عنّي بحجج فاجأتِ النّصفَ الآخر من الحضور الذين لم يفهموا سببَ أستماتة هذا الأب في الدفاع عن ابنته وعن شرف الشّعر لا عن شرف الثّورة.. أو شرف القبيلة!

ولم يلحظ أحدٌ دموعه وهو يقبّلني عند أنتهاء الأمسية ويغادر القاعة ليعود إلى غرفته في المستشفى يرافقه ممرّضاه.

يومها بكيتُ وأنا أراه ينسحب بالكبرياء نفسها ويتركني أعود وحدي إلى البيت وكأنّه يشرح لي أنّني بدأتُ يومها قدراً سأمشيه وحدي.. وأنّه لن يكون دائماً هنا ليدافع عنّي. وشعرتُ بمزيج من المرارة والفخر؛ فلقد أحتال أبي على قوانين المستشفى وحضر ساعتين لكي ينقذني غصباً عنّي من مسلختي الأولى.

لم أكن أعي يومها وأنا في الثّامنة عشرة من العمر أنّني خسرت مدينةً وربحتُ أبي.. وأنّه لن يتمكّن أحد بعد اليوم من أن يهزمني أو يتطاول عليّ. ولكني وعيتُ تماماً أنّني لكي أواجه مجتمعاً رجاليّاً، لابدّ أن أضمن وجودَ رجل إلى جانبي.

وكهامش لهذه الحادثة أذكر الآن بألم أن أمسيتي الشّعرية هذه كانت في إطار موسم شعري سنة ١٩٧٣ أخذ فيه شعرُ الشّباب باللّغتين الحيّزَ الأكبرَ. وهكذا فقد جاءت بين أمسيتين للشّاعرين الشّهيديْن الطّاهر جعوط ويوسف سبتي اللّذين كانا يكتبان باللّغة الفرنسيّة، وبدأ مشوارهما الشّعري معي في ذلك الموسم نفسه وكانا يجهلان آنذاك أنّه، رغم الهدوء والفتور اللّذين قوبلا بهما من طرف الجمهور ورغم الزّوبعة الإعلامية التي حسداني عليها، سيأتي يوم بعد عشرين سنة يتصدّران فيه جميعَ الجرائد العربية والأجنبيّة، لا كشاعرين، وإنّما كشهيدين للشّعر الجزائري، بعد أن قُتلا نيابةً عنّا ذبحاً ورمياً بالرّصاص بتهمة الكتابة لا غير.

كان ذلك زمنَ التحدّي الجميل. ورغم أنّني كنت الفتاة الوحيدة التي تكتب آنذاك بين شعراء اللّغتين، فقد كنتُ أشعر دائماً أنّ انتمائي لأحلام ذلك الجيل من الشّباب يفوق انتمائي لأنوثتي، وأنّ الشّعر والوطن هما قضيّتي الأولى.. وأمّا الأنوثة فهي مشكلتي وحدي.

تأكّد لي ذلك بعد عدّة سنوات عندما غادرتُ الجزائر لأقيم في

فرنسا وأدخل دوّامةَ الحياة الزّوجية والأمومة والالتزامات الاجتماعية.

ذات صباح استيقظتُ وإذا بي زوجة وأمّ لثلاثة صبيان ودكتورة في السّربون وباحثة في علم الاجتماع وطبّاخة وغسّالة وجلاّية ومربّية في كلّ ساعات النّهار. كان لي أكثرُ من لقب وأكثرُ من مهنة. غير أنّي كنتُ قد فقدتُ لقب شاعرة. ولا أقول إنّني تخلّيت عن الشّعر، وإنّما هو الذي تركني وتخلّى عنّي لأنّني أصبحت أدنى منه.

استيقظتُ ذاتَ صباح لأجد نفسي زوجةً وغسّالة وجلاّية وباحثة في علم الاجتماع؛ لكنّي فقدتُ لقبَ «شاعرة»!

فأن تكون شاعراً يعني أن تكون إنساناً حرّاً حرّيةً مطلقة.. ولا أقصد فقط أن تكون حرّاً في الإدلاء برأيك أو حرّاً في الذّهاب بجنونك حيث شئتَ قولاً وفعلاً، بل يتطلّب أيضاً أن تكون حراً في وقتك. أن تكون شاعراً يعني أن تكون بتصرُّف الشّعر وكأنّك نذرت نَفسَك له. فهو ككلّ حالات الإبداع: يأتيك متى شاء، ويقلب برنامجك متى شاء، فيُلغي لك موعداً ويأخذ لك آخر، ويحجزك ساعات أمام ورقة، ويخرجك من طورك لأيّام. الشّعرُ ترفٌ ليس في متناول المرأة عندنا. فإذا كان الشّاعر المتزوّج هو بالضّرورة نصف شاعر، وإذا كان الشّاعر الذي له وظيفة وأولاد هو ربع شاعر، فما بالك إذا كان الأمر يتعلّق بشاعرة عربيّة لها عدّة أولاد وعدّة وظائف اجتماعيّة وأكثر من رقيب عائلي ورسميّ؟ إنّها ببساطة.. «فتافيت شاعرة»!

وأن أكتشف أنّ الشّعر قد غادرني لم يُخِفْني بقدر ما خفت أن يغادرني الحبرُ أيضاً وتخونني الكلمات. فأنا امرأة من ورق، تعوّدتُ أن أعيش بين دفّتي الكتب: أن أحبّ وأكره وأفرح وأحزن وأقترف كلّ خطاياي على ورق.

تعلّمتُ أن أكون كائناً حِبريّاً، ألاّ أخافَ من رؤية نفسي عاريةً مرتجفةً على ورق. فأنا أحبّ عريي هذا، أحبّ قشعريرةَ جسدي العاري أمام بركة حبر.. وأؤمن أنّ الكلمات التي تعرّينا هي وحدها التي تشبهنا؛ وأمّا تلك التي تكسونا فهي تشوّهنا. ولذا كان عنوان كتابي الثاني منذ عشرين سنة هو **الكتابة في لحظة عري**.

وربما كان لحياة الأمومة والبيت التي عشتها خمسَ عشرة سنة متتالية أثرٌ في تغيّر مزاجي الحبري ونظرتي للكتابة. ذلك أنّ الكتابة لم تعد كلّ حياتي، بل حياة مسروقة من حياتي الشّرعيّة. أصبحتْ أشهى وأصبحتْ أخطر. أصبحَتْ حالةً مرضيّة: وعكة حبرٍ وحالةَ خوفٍ وذعرٍ من شيء لا يمكن تحديده. أصبحتْ حالةً تعدّديةً وقدرة على أن أعيش داخل أكثر من امرأة... أن يكون لي أكثرُ من نشرةٍ جويّةٍ في اليوم.. وأكثرُ من جسّد كلّ ليلة، وأكثرُ من قلب وأكثرُ من

مزاج عشقيّ، وأن تكون لي يد واحدة لا أكثر أكتبُ بها كُلّ هذا وأسرق بها كلّ هذا.

جان جينيه كان يقول: «كنتُ من قبل أسرق، اليوم صرت أكتب الكتب». وبإمكاني أنا أن أقول العكس: فلقد بدأت كاتبةً وانتهيتُ سارقة. فإذا كانت الكتابة بالنّسبة للبعض ترفاً وتفرّغاً وجاهاً، فهي بالنّسبة لي مواجهةٌ مع الواقع المضادّ. إنّها نهبٌ وسطوٌ دائم. فأنا أسرق الوقت لأكتب، وأسطو على مكتب ابني لأكتب، وأتحايل على من حولي لآخذ موعداً مع الورق. وسأظلّ أنهب الكلمات كما ينهب بعضُهم السّعادة. ذلك أنّ الكتابة هي المغامرة النّسائيّة الوحيدة التي تستحق المجازفة. وعليّ أن أعيشها بشراسة الفقدان كمتعة مهدّدة.

لقد عشتُ عدّة سنوات دون مكتب ودون غرفة للكتابة، أنقل أوراقي من غرفة إلى أخرى، أكتب أحياناً على طاولة المطبخ وأحياناً في غرفة الطعام أو على سريري في غرفة النوم. وأنا أتساءل الآن: ألأنّ كلّ الغرف حولي كانت محجوزة، تعوّدتُ أن أسكن ذاتي، ولأنّ كلّ الأبواب كانت مغلقة حولي فتحتُ يوماً خطأً باباً كان لابدّ ألاّ أفتحه وإذا بي أمام نفسي وإذا بي روائية؟

لأراغون مقولة جميلة: «الرّواية هي مفتاحُ الغرف الممنوعة في بيتنا». يوم قرأتها أدركتُ أنّ ولادتي الحقيقية كانت يوم فتحتُ ذلك الباب، لأرى امرأة كنت أتوقعها غيري. وإذا بي أصابُ بالدّوار والذّهول، وإذا بطوفان الكلمات يذهب بي نحو نص مفتوح ومخيف في نزيفه، لم يكن إلاّ رواية سيكون حجمها أربع مئة صفحة ويكون اسمها **ذاكرة الجسد**.

اكتشفتُ أنني قضيت حياتي أمرّ بجوار تلك الغرف الممنوعة داخلي، معتقدة أنها لا تعنيني لأنني أسكن غيرها. والواقع أني كنت أسكن غيرها وكانت هي التي تسكنني وتشغل الحيّز الأكبر من فضائي الداخلي وفضائي على الورق، وبالتالي كانت مفاتيحها هي التي تحكمني وقفلها هو ثقب حريّتي وعبوديّتي.

أدركت أنّ عليّ، لكي أكون كاتبةً، أن أسكن بيتاً من زجاج لا أنْ أختفي خلف كتب من الإسمنت المسلّح. فالروائي هو الذي لا يتردّد في فتح غرفه السّرية أمامك، بل يجرؤ على دعوتك لزيارة الطابق السفليّ في البيت والقبو والأماكن المغلقة التي تكدّس فيها الغبارُ والأثاث القديم والذاكرة.. وكلّ دهاليز النّفس التي لم تدخلها الكهرباء بعد، وتلك التي تنبعث منها رائحة العفونة المشبوهة.

الروائي هو الذي يفتح لك الباب مرتدياً ثيابه العاديّة.. أو ثيابه الداخليّة دون أن يعنيه أنّه نسي أثناء ذلك أن يغسل وجهه ويحلقَ ذقنه ويخلع منامته لاستقبالك... وعذره في ذلك أن حياته تشبه حياتك، وتفاصيله لا تختلف عن تفاصيلك، وأنّك اشتريت كتابه لتقرأ نفسك لا غير.

ولكن رغم هذا، فلابدّ أن أعترف هنا: أنّنا مهما كنّا نزهاء فنحن نكتب ـ أيضاً ـ لنكذب.

والذين يدّعون أنّهم يكتبون ليكونوا صادقين إلى أبعد حدّ يُضحكونني بسذاجتهم.. أو بغشّهم المطلق. فالكتابة مراوغة مستمرة مع الذّات.. تحايل دائم على الآخرين.. اختبار دائم لقدرتهم على قراءة البياض، ولقدرة الزّمن على الاحتفاظ بالسّواد من الكلمات.

كنا نكتب لقارئ مجهول، فأصبحنا نكتب لقاتل مجهول!

والواقع أنّنا نحن نكتب نصّنا دائماً خارج النّص. ولذا ففي كل كتبنا صفحةٌ من البياض المطلق هي وحدها قصّتنا، صفحة هي كفنُ الكلمات التي ستموت معنا. فكفن الكاتب ـ كحياته ـ ليس سوى ما بقيَ من بياض بين صفحات كتبه وما بقيَ من ورق أبيض على طاولته.

منذ الأزل.. نحن نكتب وندري تماماً أنّ في نهاية كلّ كتاب حاجزَ تفتيش ينبش في أفكارنا، يفسّر أحلامنا، يتربّص بنا بين السطرين، يفسّر صمتنا ونقاطَ الانقطاع بين كلماتنا.

ولكن الجديد أنّنا كنّا نكتب لقارئ مجهول.. فأصبحنا نكتب لقاتل مجهول يحكم علينا حسب مزاجه. كنّا نعرف الرّقيب فنواجهه أو نتحايل عليه، فأصبحنا لا ندري مَنْ يراقب مَنْ وما هي المقاييس الجديدة للكتابة؟

الجديد في الكتابة اليوم.. أنّ القمع كان يأتينا من السّلطة ومن الأهل فأصبح يأتينا من القارئ نفسه.

كنّا نحلم أن نكتب كتباً جديدة.. فأصبحنا في الجزائر نحلم بإعادة طبع كتبنا القديمة. فما كتبناه في السّبعينات أصبحنا عاجزين عن كتابته اليوم.

كنّا نحلم أن نعيش يوماً بما نكتب.. أصبحنا نحلم ألاّ نموت يوماً بسبب ما نكتب.

كنّا نكتب ونحن نحلم بوطن نموت من أجله.. فأصبحنا نكتب لوطن نموت على يده.

كنّا في بدايتنا نحلم أن نغترب ونصبح كتّاباً مشهورين في الخارج. اليوم وقد أصبحنا كذلك، أصبح حلمنا أن نعود إلى وطننا لبضعة أيّام.. ونعيش فيه نكِرات.

منذ عشرين سنة كنت أحلم أن تصلني يوماً دعوة كهذه من باريس لألقي فيها محاضرة.. اليوم أصبحت أمنيتي أن تصلني دعوة من الجزائر.. ألقي فيها هذه المحاضرة نفسها وأعود بعدها إلى أولادي.

منذ عشرين سنة كنت أحلم أن أقرأ شعراً في بيروت على جمهور راقٍ، ولكنّني يومَ وقفت منذ سنتين لأقرأ شعراً في بيروت غادرتُ القاعة وأنا أبكي؛ فلقد اكتشفتُ بعد هذا العمر أن أمنيتي هي أن أقرأ شعراً في الجزائر لا أكثر، أنّني لن أكون شاعرة إلاّ في وطني، وأنني في النهاية قد تعوّدت على طقوس الكوريدا، وأنّ ذلك الجمهور الشّرس إنّما يأتي ليتفرّج على دمي ويعود إلى بيته حاملاً في جيبه أذني كما يفعل الموتادور مع ثور مهزوم. نعم، أحبّتي! لقد تواضعتْ أحلامنا كثيراً في زمن قصير.. أنهكتنا الهزائمُ القومية والخيباتُ الوطنيّة، بين زمن الموت وزمن الذّهول. دخلنا الزّمن المضادّ للكتابة. وإذا كان هذا الواقع جحيم الكُتّاب وحتفهم، فميزته أنّه إعادة اعتبار للكتابة ومناسبةٌ لإعادة النّظر بالنّسبة للذين استرخصوا الكلمة طويلاً، وتطاولوا على شرف القلم. فَلْيَعِ هؤلاء أن لا نصَّ مجّانيّاً بعد الآن، وأنّه حان لمن هم ليسوا كتّاباً أن ينسحبوا ويتركوا هذا الجحيم للآخرين: لكتّاب رائعين هم الشّهداء الأحياء للكلمة أمثال الصّديقة الكاتبة زينب الأعوج وزوجها الروائي واسيني الأعرج ورشيد بوجدرة وزشيد ميموني وعشرات المبدعين الجزائريين المشرّدين والباحثين عن مأوى لهم ولأولادهم وعن مساحةٍ صغيرة يعيشون ويكتبون فيها تكون أكبرَ قليلاً من قبر.. وأصغر كثيراً من وطن. لهم أهدي شهادتي هذه التي هي أدنى من شهادة حياتهم الحاضرة واحتمال موتهم الآتي. وأمّا ما قلته لكم اليومَ، فلا يستحق الذّكر.. ولا يساوي قطرة واحدة من دم الطّاهر جعوط ولا يوسف سبتي ولا كلّ شهداء الحبر الجزائري.